اللغة العربية كمجال للاستثمار في الهوية.. حالة الحركة الإصلاحية الجزائرية في عهد الإستعمار الفرنسي

د. نورالدين ثنيو

اجرائية الاستثمار في اللغة العربية

ينطوي مصطلح الاستثمار، في عالم الاقتصاد، على الثروة و الثمار و تحقيق المنافع و الخيرات. فغرضه الربح و بناء الثروة، كأن يسعى صاحب المشروع الى اعادة اصلاح الأراضي من أجل الزراعة و الفلاحة و الثروة الحيوانية و تربية المواشي و استخلاص ما يمكن من الإنتاج و السلع. فالاستثمار يرمي منذ البدء الى استغلال كافة الوسائل و تسخيرها لفائدة نجاح المشروع بأن يدر الأرباح و النتائج الإيجابية على صاحب المشروع في أفق تحقيق النفع العام للمجتمع الصغير l'entreprise و الكبير la société . و هذا المعنى لمصطلح الاستثمار في عالم الاقتصاد، كما تصوّره رواد الاقتصاد الحديث، جرى تحريفه في الفترة الاستعمارية لكي يعني الاستغلال و الاستعباد و الحيف، و من هنا، لاذ سكان المستعارات، من خلال نخبهم الفكرية و السياسية الى توظيف ذات المصطلح ضدًا على السياسة الاستعمارية و لصالح مجتمعاتهم الأهلية. و عليه، بناء على التجربة التاريخية للاستعمار، فإن سيرورته كانت منافية و مضادة تماما لمقصد الاستثمار، و أن الحركات الإصلاحية و الوطنية هي التي أعادت تثمين المصطلح و أدرجته في مسار تحقيق الاستقلال التاريخي للشعوب و الأمم المستعمَرَة، على ما تم في الجزائر.

يتمتع مصطلح "الاستثمار" بقوة إجرائية على صعيد المفهوم، و على صعيد العمل أيضا. و إذا كان مجال تداول " الاستثمار" الغالب فيه هو الاقتصاد، فإن مفهوم التنمية المستدامة يُوَسّع توظيف مفهوم الاستثمار إلى التاريخ للوقوف على الحركات التي صَنَعَته و تواصلت معه في اتجاه بناء الأمم و الدول. و لعلّ خير نموذج نُسَخّره في هذا البحث، تجربة الحركة الإصلاحية الجزائرية، قبل الاستقلال، التي استثمرت في اللغة العربية و اعتمدتها وسيلة لترقية و ازدهار الشخصية القاعدية للإنسان الجزائري و الانتقال به من مجرد أهليindigène إلى مواطن citoyen يفصح عن مركزه الجديد باللغة التي تبرر حق الوجود المُستَقِل و واجب الحِرْص على الهوية.

الحقيقة أن قيمة استثمار الحركة الإصلاحية في اللغة العربية كمقوّم ذاتي، تَظْهَر أول ما تَظْهر في البحوث و الدراسات التي تَتَلمس مقاربة قراءة تاريخ الاستعمار في كافة جوانبه، بحيث لا يقتصر على النشاط الاستعماري و تَرُد كل شيء الى فعله الأصلي، بل تتخطاّها الى الاهتمام أيضا بنشاط الأهالي سواء أكانوا نخبا أو عواما. و لعلّ مثال الحركة الإصلاحية أفضل تعبير عن مشروع قام على فكرة الاستثمار من حيث التصور و التنفيذ و الغاية. فقد اجترحت جمعية العلماء المسلمين مشروعها، بداية من ثلاثينيات القرن العشرين، ضدّا على السياسة الاستعمارية التي لازمت الوجود الفرنسي في الجزائر لأكثر من قرن. فعمدت الى محاولة كشف و اكتشاف الذات الجزائرية في جوانبها و أبعادها التاريخية و الاجتماعية و الوقوف بالتوضيح و الشرح على مقوّماتها الإيجابية.

فعوض الطمس و المحو و الإهمال و الحظر التي انتهجتها السياسة الاستعمارية في مسعاها الاستغلالي، تبنت جمعية العلماء مسعى الإبراز و الكشف و التوضيح كأفضل سبيل الى تحديد ملامح و قسمات الإنسان الجزائري ليس كأهلي بل كفاعل في الحياة الحديثة و المعاصرة تخاطبه نفس قوانين الدولة و مؤسساتها. فقد كان الهم الأساسي لرجال الإصلاح التوكيد المتواصل لميزات و مميزات و خصائص المجتمع الجزائري من أجل تخليصه من الوضعية الاستعمارية، و إعادة ادراجه في الفضاء العربي و الإسلامي. و عليه، فإن فكرة تثمين و اعادة الاعتبار للغة العربية، كقيمة و مقوّم للذات الجزائرية كانت حاضرة في البدء و السياق الى أن انتهت الى تحقيق التمايز البيّن و

الواضح بين الجزائريين و الفرنسين و الطلاق الحتمي و النهائي بينهما.

واليوم، اعتمادا على براءة مصطلح الاستثمار و مقصده العلمي و الأصلي، يمكن أن نستفيد منه و مقاربته لكي نعيد قراءة بعض تجارب الأمم و الشعوب و البلدان التي رزحت تحت نير الاستعمار، و نعيد من ثم تَقْيِمها في ضوء المعاني الإيجابية التي يوحي بها مفهوم الاستثمار و مفاهيم أخرى، بعد تصفيتها من الاستعمار و إعادة توظيفها التوظيف السليم الذي سيساعد على كشف الدور الإيجابي و الفاعل للحركات و التنظيمات و الشخصيات زمن الاحتلال، ليس كردود أفعال، بل كأفعال أصلية و أصيلة، منطلقة من الوعي العالي بالذات و إمكانية الاستثمار فيها. و الحقيقة، و في مجال بحثنا في الحركة الإصلاحية و تنمية الشخصية الجزائرية، نطلب الموضوع من ناحية ما صار يعرف بالتنمية المستدامة التي لم تعد قاصرة على الإنتاج و الاستهلاك المادي بقدر ما تشيء أيضا الى تنمية الإمكانات و القدرات و الوسائل اللامادية، بحيث تشمل ثروة المجتمع و الإنسان في صلتهما بالتاريخ في كافة أبعاده الزمنية و الجغرافية عندما تعني الطبيعة و ثرواتها المختلفة، فضلا عن الواقع و ما يزخر به و ما يمكن أن يوحي به من حوافز و مناسبات و صدف.

بين الاستغلال و الاستثمار

كان الاستعمار، طوال القرن التاسع عشر، يعني عملية توطين الفرنسيين و الأجانب في الجزائر و مَدِّهم بكافة الوسائل لإعادة اصلاح الأراضي و الاستثمار فيها، و كان المصطلح المتداول هو colonisation، أي الإعمار و التعمير، لكن مع بداية الوعي بالآثار السلبية للاستعمار على كافة الأهالي و السكان الأصليين، أخذ مصطلح الاستعمار مدلولا بغيضا و مستهجنا، أي نزعة استغلالية احتكارية صارت تعرف colonialisme، التي تُقْصر كامل المردود و الثمار و المصالح على المعمرين الجدد و تسعى دائما الى توطين و ادامة علاقتهم بالأرض المحتلة. و من هنا أخذ الاستعمار الصَّيت الفاسد و ثارت الدعوة ضده من أجل تجاوزه عبر الدعوات الإصلاحية و الوطنية و الحركات التغييرية، و كان نصيب الحركة الإصلاحية أن عمدت الى الاستثمار في عناصر الذَّات بالبحث عنها و كشفها و الاستقلال بها عن الاستعمار.

كان النظام الاستعماري قوة تدميرية خَلَّاقة ، بقدر ما كان يستَغِل و ينهب و يدمِّر، بقدر ما كانت جمعية العلماء المسلمين تستثمر في القطاع الذي كانت تجهله الإدارة الفرنسية و تسعى، من ثم ، إلى الإفصاح عنه و ترقيته ضدا على الحالة الاستعمارية التي تريد أن تكرس الاستغلال و الاحتلال. فقد اجْتَرحت الحركة الإصلاحية مشروعها التربوي و التعليمي في الاستثمار في اللغة العربية و ما تنطوي عليه من مستويات التعبير و من القيمة الدينية، و استأثرت بها كأفضل طريق إلى الاستقلال الذاتي و التاريخي للجزائريين حيال المعمّرين. و إذا كانت العبرة دائما بالنتائج، وفق ما يؤمن به العقل الاقتصادي اليوم، فإن استثمار جمعية العلماء و رجالاتها في اللغة العربية وفّر مقوِّمات الهوية الجزائرية في صلتها باللغة و الدين و الحياة المعاصرة، و هي القَسَمَات و الملامح الجوهرية التي استندت عليها السلطة الجزائرية المستقلة لبناء دولتها على أساس من المفهوم الحديث للأمة.

على خلاف النظام الاستعماري القائم على الاستغلال في وجوهه السلبية و البغيضة، راحت الحركة الإصلاحية، عبر جمعية العلماء، الى احكام استراتيجية شاملة من أجل الاستثمار في مقوّم اللغة العربية من أجل إعادة بناء المجتمع الجزائري في عصره الجديد. و عليه، فإن سياسة الاستثمار في مقومّات الذات، كما كان يرى ابن باديس، تنطوي على قدر كبير من الأهمية، ليس لتثمين و تفعيل اللغة العربية فحسب، بل لتنمية " الفهوم" الجديدة للدين الإسلامي في مدلولاته الإنسانية و العالمية. و الوسيلة الفكرية لبلوغ المدَنيّة الحديثة هي اللغة عبر ترقيتها و تطويرها و توسيع تداولها حتى بوجود اللغة الفرنسية، التي لا يمكن بحال أن تكون مزاحمة لها، و يؤكد ابن باديس أن اللغة العربية الفصحى : " لغة العلم و الأدب و القراءة و الكتابة التي يتفاهم بها نيف و تسعون مليونا من الناطقين بالعربية بلهجات مختلفة، إنما هي اللغة الفصيحة المعرَّبة، فهاته هي التي تثقِّف الفكر و تنضِّجه"١. و يضيف في موضع آخر أن العربية لغة فكر و مدنية و حضارة: " ليس الفكر الفرنسي بأبعد عن العربية من الفكر العربي عن الفرنسية، و لا العربية بأقل عذوبة و أكثر صعوبة من اللغات الغربية، و نحن نعلم أن الآلاف من العرب يحسنون لغة أو لغات من اللغات الغربية، و قد يكون فيهم من يتقن ما يعرف منها أكثر من بعض العالمين بها من أهلها. فلماذا سهل ذلك عليهم و لم تتحيّر و لم تتقلل به أفكارهم كما يزعم ذلك في الفكر الفرنسي إذا تعلمّ العربية ؟"٢.

كانت اللغة العربية، في برامج و مشاريع و أهداف جمعية العلماء مطلبا بمعنى تحريرها من سلطة الاحتلال التي صادرتها و اعتبرتها

لغة أجنبية في الجزائر٣، كما أن اللغة كانت مسعى في نشاط الجمعية من أجل ترقيتها و تحديثها و تحريرها من التَّخَلف الذي رَان عليها مند عصر الانحطاط العربي. و في كافة الحالات، ارتقت اللغة العربية إلى مستوى " المسألة اللغوية في الجزائر"، انطوت على معنى سياسي عندما تعني نظام الحكم ، كما انطوت على بعد الاجتماعي و الحضاري عندما تعني الحركة الإصلاحية بما لدى شيوخها و علمائها من خبرة و اختصاص في مجال العربية و الدين الإسلامي٤.

فقد خاضت الحركة الإصلاحية تجربة تاريخية رائدة في عملية الاستثمار في اللغة العربية و مقوّمات الذات، واجهت سياسة الاحتلال و الاستعباد و الاستيعاب بسياسة أخرى مناهضة تماما لها، و استطاعت في نهاية المطاف أن تحقق الاستقلال التاريخي للشخصية الجزائرية عن الوجود الفرنسي في الجزائر. فحيال استراتيجية الاستغلال التي اعتمدتها السلطة الاستعمارية الفرنسية، عمدت الحركة الإصلاحية الى تبني سياسة الاستثمار في أهم مقوِّمات الذات الجزائرية و أحكمت خطة ادرجتها ضمن المدى الطويل لاكتشاف الذات و كشف عناصرها في المجال العام، و التماس عناصر الهوية، بعناد و صبر، من أجل التمسك بها في مواجهة سياسة المحو و التلاشي و الاضمحلال. و كانت خطة جمعية العلماء المسلمين تقتضي أن يعاد تثمين و تفعيل اللغة العربية كلغة تواصل و تعليم و لغة الدين الإسلامي. و عليه، فقد كانت سياسة العلماء الوجه المنافي و المضاد لسياسة الاستعمار. كل طرف يستغل ما لديه من امكانات ليحقق ما يريد، و كان للعلماء فَضْل اكتشاف حقل الذات و الاستثمار فيه.

اشكالية تعليم اللغة العربية في المجال العام

مثَّلت اللغة العربية إشكالية كبرى للحركة الإصلاحية، لأنها كانت بمثابة المطلب الذي يجب أن تستخلصه من الإدارة الفرنسية العامة، كما أنها كانت موضوعا رئيسا في برنامجها الرامي إلى تنمية الرأسمال البشري الجزائري. و بتعبير واضح، فاللغة طرحت زمن الاحتلال، كما طرحت سائر القضايا الأهلية، كمسألة يجب أن تساهم فيها السلطة و الحركة في آن معاً، لأن المطلوب في إشكالية اللغة لدى رجال الإصلاح أن تتم الخوض فيها في صلتها بالمجال العمومي الذي تحتكره و تستأثر به السلطة، كما أن موضوع اللغة في جهة أخرى يجب أن تبث فيه جمعية العلماء لأنها جمعية أهلية و مدنية آلت على نفسها تربية و تعليم الجزائريين اللغة العربية و الدين الإسلامي على مستوى العبادات كما على مستوى المعاملات. فقد توسلتالجمعية اللغة العربية برسم إدراجها في المجال العام، الأمر الذي يستدعي بالضرورة تدخل النظام العام.

شكل تعليم اللغة العربية في المجال العام اشكالية لصلتها بالسلطة و بالحركة الإصلاحية. فقد تخلت الإدارة الاستعمارية عن متابعة و مراقبة التعليم القرآني و نشاط المدارس الحرة لضيق أفقها و رتابة الدروس التي تلقنها، ترمي كلها الى حفظ القرآن و ترديده في الصلوات و أن اقبال الأهالي على التعليم القرآني هو ما يحول دون ادراجهم ضمن التعليم العام. وفي هذا التقرير الصادر عن مصالح الحكومة العامة في الجزائر حول المركز الأساسي للأهالي و حقوقهم السياسية ما يبيّن ذلك : " ان العادات و التقاليد و ما يميز السكان الأهالي في الجزائر، يَحُول دون التطبيق الفعلي للتشريعات الفرنسية المتروبولية حول التعليم الابتدائي العام (...) كما يجب الإشارة أن الغالبية الساحقة من الأهالي يسكنون الأرياف، و لا يبدون أي اكتراث لمسألة التعليم أصلا. و عليه، فإننا نواجه حيالهم صعوبات جمة ، أي أننا نواجه مقاومة حقيقة، فضلا على ركود تام يصعب قهره عندما نريد الارتقاء بهم ليستفيدوا من مزايا التعليم"٥ .

ان السياسة السلبية حيال التعليم العام، خاصة منها تعليم العربية حقيقة استعمارية دأبت عليها السلطات قصد ابعاد الأهالي المسلمين من دائرة التطور العام، و حتى بعض الجزائريين الذي نالوا حظا من التعليم الفرنسي أدركوا و فهموا المسار الفاسد و الخطير على الوضع العام ليس على المسلمين فحسب بل على الفرنسيين أيضا، و لعلّ كتابات الأمير خالد و الشبان الجزائريين تفصح بأكثر من معنى عن السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر. و هذا أحد الشبان المثقفين محمد بن رحّال، الذي كان له إلمام بأكثر من طرف باللغتين العربية و الفرنسية، فضلا على عضويته من المندوبية المالية التي قربته من لجنة النائب الفرنسي المعروف جول فيري، يقول في خطاب له حول تعليم اللغة العربية : " ليس هناك ما يأخذ بمجامع قلب المسلم مثل اللغة التي رضعها مع حليب الصِّبَى و التي يقرأ بها القرآن الكريم و يدعو الله بها في كل صلواته. يمكننكم اقرار تعليم اللغة العربية، لا بل، عليكم أن تفعلوا ذلك.. و خطابي هذا هو نصيحتي اليكم كصديق مخلص

لطالما عمل في هذا الحقل لسنوات عديدة"٦. ثم يختم خطابه الى السلطات العمومية: " لا يمكن ان نُرقّي شعبا نحو حضارة أجنبية أفضل الا من خلال مراحل متوالية، و انطلاقا مما هو موجود و بناء على ما تعوّد عليه. وما تعوّد عليه المسلم الجزائري هو هذه المدارس القرآنية التي يتلقى فيها الأفكار الأولى وتعليمه الأساسي. إن مضاعفة بناء المدارس الفرنسية أمر محمود و جيد جيدّا، لكن اهمال المدارس العربية شيء لا يمكن أن يغتفر و يتنافى مع السياسة الفرنسية في الجزائر"٧.

كان السيد محمد بن رحّال من الأوائل الذين تنبَّهوا الى فساد السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، خاصة حرمان المسلمين الجزائريين من تعليمهم الأصلي و الديني فضلا عن إمكانية تطوير و ترقية التعليم العام، و اعتبر ذلك مفارقة خطيرة لا يمكن أن تصمد طويلا، و يضيف في نفس الموضع " رغم أن العربية هي لغة الأم لملايين من السكان المسلمين، الذين يتطلعون أيضا الى تعلم اللغة الفرنسية، لكنها أبدا يمكنها أن تحل محل اللغة الأم. فلتصور شعبا بلا لغة يحاول أن يعبر عن أفكاره، و يدرك أفكار الآخرين، و يثقف عقله و يعرب عن مشاعره و يرَقّي أخلاقه و العيش و التطور"٨. فقد لاحظ أن الإدارة تبنت سياسة استعمارية ترمي الى تكريس الوضع الأهلي على ما هو عليه و تبريره كأمر واقع حتمي لا فكاك منه. فقد كان دور الكتاتيب القرآنية و المدارس العربية التقليدية، كما جاء في تقرير مصالح عمالة مدينة الجزائر هو ترسيخ ركود الثقافة الدينية بالقدر الذي لا يؤذي الوضع العام، فالمدارس و الكتاتيب على إشكالها تساعد على بقاء الوضع على ما هو عليه و ليس لتحسينه، و من ثم فإن دوره سلبي جداّ، يُبقي الطلبة و المعلمين بعيدين عن الحضارة الحديثة وما ترومه السلطات الفرنسية في الجزائر. و على خلاف ذلك، كما يعَقِّب التقرير، فإن الأمر يختلف مع جمعية العلماء المسلمين التي بررت اساس وجودها بالتكفل بهذه المدارس و السعي بها الى مفهوم آخر من التعليم و الى أهداف اخرى من التربية و الترقية الاجتماعية. و يوضح التقرير هذه النقطة على النحو التالي :" فقد قام العلماء، الذين وضعوا ايديهم على المدارس القرآنية، بتوجيه عقول الطلبة و التلاميذ نحو رفض و معاداة فرنسا، بدلا من الانصياع السلبي الى مصيرهم. لا ريب أن المعلمين الذين يعزم العلماء على تكوينهم هم الذين سوف يقوِّضُون فكرة فرنسا في الجزائر، و أن كل نشاطهم سوف ينصرف الى مواضيع ذات الصلة بالجامعة الإسلامية، حيث بدأت تبرز في السنوات الأخيرة، فكرة القومية الجزائرية ذات اللسان العربي، التي تعزى ليس الى نوع من القرابة الأثنية و التشابه الثقافي، بل تستند الى المواجهة الدينية المعادية للغرب٩.

و عليه، فإن وضعية اللغة العربية لم تكن بسيطة كما كانت تتصور الإدارة الاستعمارية عندما منحت الاعتماد لجمعية العلماء و صادقت على قانونها الأساسي شهر ماي من العام ١٩٣١ ، لا بل مثلت إمكانية معنوية و ثقافية لاجتراح مشروع نهضوي في الجزائر، و رأسمال رمزي أدبي لامادي قابل للاستثمار فيه على المدى الطويل يخلص إلى تحقيق نتائجه الشرعية و الحتمية. و إذا عنَّ لنا توظيف الخطاب الاقتصادي لشرح مسألة اللغة في نشاط الحركة الإصلاحية، نقول أن جمعية العلماء استثمرت في قطاع لم يكن فيه من ينافسها، لا من جهة السلطة ولا من جهة المجتمع الأهلي، و لعلّ هذا ما يفسر النجاح الباهر الذي حققه المشروع الإصلاحي في الجزائر زمن الاحتلال كما زمن الاستقلال. و لعلّ الجدول التالي لوضعية التعليم الأهلي، ما يفصح عن الجهد الرائع الذي اضطلعت به الحركة الإصلاحية تواصلا مع بقية الجمعيات الجزائرية:

التوجه الانفصالي - التوجه الموالي

التوجه السياسي	نزعة وطنية	جمعية العلماء	الحصيلة	الإصلاح المستقل	غير سياسية	تقليدية	الحصيلة	الحصيلة العامة
الجزائر:	-	٢	٢	١	٣	١	٥	٧
- مدارس	-	٦	٦	١٢	١٠	٣	٢٥	٣١
- معلمون	-	٤٣٠	٤٣٠	٣٠٠	٤٢٠	٦٠	٧٨٠	١٢١٠
- تلاميذ								

وهران:	٢	١١	١٣	١	–	–	١	١٤
– مدارس	٣	٣٤	٣٧		–	–	٣٥	٣٨
– معلمون	٢٣١	٢١٢٠	٢٣٥١		–	–		٩٣٨٦
– تلاميذ								
قسنطينة	٥	٣٢	٣٧	٦	٧	٢	١٥	٥٢
– مدارس	٧	١١٢	١١٩	١١	٢١	١٤	٤٦	١٦٥
– معلمون	٣٥٥	٥٢٩١	٥٦٤٦	٤٥٣	١٣٢٨	٤٩٠	٢٢٧١	٧٩٣٧
– تلاميذ								
الجنوب	–	٢	٢	٣	١	–	٤	٦
– مدارس	–	٥	٥	١٨	١	–	١٩	٢٤
– معلمون	–	٦١٥	٦١٥	٥٨٣	٣٢	–	٦١٣	١٢٣٠
– تلاميذ								
الحصيلة	٧	٤٧	٥٤	١١	١١	٥	٢٥	٧٩
– المدارس	١٠	١٥٧	١٦٧	٤٢	٣٢	١٧	٩١	٢٥٨
– المعلمون	٥٨٦٤	٨٤٥٦	٩٠٤٢	١٣٧١	١٧٨٠	٥٥٠	٣٧٠١	١٧٤٣
– التلاميذ								

هذا التقرير يحصي عدد المدارس الخاصة بمعلميها و تلامذتها التي وجدت خلال سنتي ١٩٥٠/ ١٩٥١، و يعطي نصيب كل تشكيلة و اتجاه من هذه المدارس. و القراءة الفاحصة لهذا الجدول تؤكد حقيقة الدور الكبير الذي اضطلعت به جمعية العلماء في تأسيس و تسيير المدارس الحرة عبر عمليات الاكتتاب و جمع التبرعات و الجهد العصامي للمعلمين و العاملين في حقل الإصلاح.(أنظر حكومة الجزائر العامة / الديوان/ مصلحة الاتصال لشمال أفريقيا : ٤i/ ١٤)

إعادة امتلاك اللغة العربية عبر التربية و التعليم

تمثّل سعي جمعية العلماء المسلمين كمؤسسة تربوية دينية و علمية الى استعادة اللغة العربية من سلطة الاحتلال التي أخرجتها من دائرة التعامل الرسمي و أدرجها في جملة من القرارات و الإجراءات التي تتعلق بشأن الأهالي في صلتهم بالعبادات و الأحوال الشخصية، و في غالب الأحوال يجري التعامل معهم باللغة المحكية الدارجة، و في هذا الصدد جاء في مطلب مكتب جمعية العلماء الذي رفعه الى المؤتمر الإسلامي الأول : " تعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، و تكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية، و تعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، و تعطي الحرية في تعليمها في المدارس الحرّة مثل اللغة الفرنسية"١٠.

ومن هنا، فإن إقصاء اللغة العربية من الدائرة الحكومية و الرسمية و من التعليم العام، هو الذي دفع بالمصلحين الجزائريين الى توسل وضع آخر يرمي الى استعادة عنصر اللغة من النظام القائم، و ادراجه في اطار المشروع الإصلاحي العام الذي يهدف من البدء و في السياق و النهاية الى تكوين الإنسان الجزائري الحديث و المعاصر في صلته باللغة العربية الحديثة و المعاصرة، و بها يتم فهم الدين الإسلامي و التعامل معه بما تُتيحه قدرة و عبقرية اللغة نفسها في مجالاتها التداولية الحديثة و المعاصرة. ان اللغة كقيمة و مجال للاستثمار في المشروع الإصلاحي، لها أهمية اعتبارية و وجودية لأنها تتعلق بالإنسان الجزائري و بمصير الجزائر كوطن، مجتمع و دولة. و من هنا، فالاستثمار في هذا المجال هو نوع من الاستثمار الوجودي الشامل الذي يحي بلدا من الزوال و ينقذه من الاندثار. و عن صلة اللغة العربية بسائر المجالات و كافة المضامير التي ترتقي الى مشروع النهضة الشاملة ما ورد في نفس مطالب مكتب الجمعية :" التعليم الديني: تؤسس

كلية لعلوم الدين و لسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة و خطباء و مدرسين و مؤذنين و غيرهم. القضاء: ينظم القضاء بوضع مجلة أحكام شرعية، على يد هيئة إسلامية يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية، و إدخال إصلاحات على المدارس التي يتخرج منها رجال المحاكم، منها تدريس تلك المجلة (مجلة الأحوال الشخصية، مثل ما هو عليه الوضع في تونس، والدول الإسلامية)، و التحقق بالعلوم الشرعية الإسلامية، و طبع التعليم بطابعها، لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين"١١.

ينهض التراث العربي و الإسلامي شاهدا على حضارة الإسلام و العرب. كانت اللغة العربية الدليل القوي على قدرتها على هذا الإنجاز التاريخي الرائع. و هكذا، تواصلا مع مشروع الإصلاح كنقيض منافٍ للاستعمار الذي كان قائما على السيطرة و الاحتلال و الاغتصاب، تبنت الحركة الإصلاحية أسلوب الاستثمار في مقوّم اللغة العربة كأفضل سبيل الى تحرير الإنسان الجزائري و مجتمعه من مأزق الوضعية الاستعمارية. و توكيدا لهذا التوجه، يربط ابن باديس اللغة بمصطلح الاستثمار و يرتقي بالموضوع الى تحقيق المدنية و اسباب الحياة الحديثة . " إن الذي يحمل عَلَم المدنية العصرية اليوم هو أوروبا، فضروري لكل أمة تريد أن تستثمر ثمار تلك العقول الناضجة و تكتنه دخائل الأحوال الجارية، أن تكون عالمة حية من لغات أوروبا، و لكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية فإنها تبقى في عزلة من هذا العالم، مطروحة في صحراء الجهل و النسيان من الأمم المتمدنة التي تتقدم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل، و مما لا ارتياب فيه، و الواقع شاهد، أن مقدار كل أمة في اللُّحُوق و التَّخلف بركب المدنية، بنسبة كثرة و قلة انتشار لغة من لغات الغرب"١٢. و غني عن البيان أن ما جاء في هذه الفقرة يعكس وعي ابن باديس لقيمة و أهمية اللغة الحية في صلتها بالتقدم و الرقي، و بالقدر الذي يجب أن لا تُحرم اللغة العربية من هذه الميزة. و توكيدا لذلك يردف ابن باديس على النحو التالي : " اللغة العربية من اللغات الحية التي تقرن بالإنكليزية و الألمانية في المدارس الثانوية، و استفادة الفرنسويين من تعلّمها ماديا في مستعمراتهم لا ينقص، بل يزيد على استفادتهم من غيرها، فهي بهذه الاعتبارات، زيادة على حاجة الجزائريين أبناء فرنسا لها، مستحقة لكل اعتناء و تقديم. فإذا دعونا إلى تعلمها و الاهتمام بها و قرنها في التعليم باللغة الفرنساوية، فتلك الفائدة المشتركة لسكان القطر كله بتلك الاعتبارات المتقدمة، و نود أن نرى من بيدهم الأمر من رجال الإدارة، و ممن لهم ماديا أو أدبيا من الأمة أن يتعاونوا على تكوين تعليم مزدوج فرنسوي١٣ عربي يجني ثماره الجميع"١٤.

الحقيقة، أن صلة اللغة العربية بالمدَنيَّة ثابت جوهري على صعيد المنهج كما على صعيد الرؤية و الغاية، و كافة ما يسعى و ينتهي اليه نشاط العلماء المصلحين هو ربط اللغة بالمدنية، و هي من التراث الإنساني، عرفتها و شهدتها كل الأمم، على ما يرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي يوضح: " و هذه المدنية ... هي في الحقيقة تراث إنساني تسلمه أمّة الى أمّة و تأخذه أمّة عن أمّة فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما تهيأ لها من وسائل و ما يؤثر فيها من عوامل. و خير الأمم و أوفاها للمدنية هي الأمة التي تقوي الجهات الصالحة في المدنية و تكمل النقائص الظاهرة فيها. و تسعى في نشرها و اشراك الناس كلهم في خيراتها و منافعها، و خير اللغات ما كانت لسانا مبينا للمدنية تسهل على الناس سبيلها و تمهد لهم مقيله"١٥. في هذه الفقرة التي خاطب بها نائب رئيس جمعية العلماء حشدا من المستمعين، ثم أعاد كتابة المحاضرة لقراء مجلة الشهاب، ما يشيء الى تقريب قيمة و أهمية اللغة الى الوعي المجتمعي العام الى حد اعتمادها كقسمة مشتركة بين الجزائريين، و يوضح ذلك و يشرح : " أيها الاخوان، لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية و عمران، و لو لم تكن لغة متسعة الأفاق، غنية بالمفردات و التراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا اليها علوم اليونان، و آداب فارس و الهند، و لا لزمتهم الحاجة الى تلك العلوم بتعليم تلك اللغات، و لو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية و أدمغة يونانية، و لو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته. لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم و ما العالم إذ ذاك الا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون"١٦. فاللغة، على ما يشرح الإبراهيمي، وسيلة حضارية اندرجت في التاريخ مع سائر الأمم، و بإمكانها أن تساهم في تقديم نصيبها في ما يحتاج اليه العالم، أي الإفصاح عن بعدها العالمي.

وغني عن البيان أن الذات، الهوية و الشخصية تتوفر على حيوية ثرية و خصبة من أجل الاستثمار فيها و استخلاص ما يفيد الأمة و الشعب في الراهن و المدى اللاحق. فالتنمية، وفق هذا المنظور، لا تكتفي على أنها تتوجه عكس سياسة الاحتلال، و هذا مستوى من تحقيق التنمية، بل تسعى الى تنمية الذات نفسها لنفسها. فقد كانت السياسة الاستعمارية ترمي الى تنمية المستعمر على حساب الأهالي المستعمَرين، الا أن المعادلة في حالة استثمار الحركة الإصلاحية في مقومات الذات، ترمي الى استعادتها من صلب السلطة، فضلا على

اعادة توظيفها في مجال الحياة الأهلية من أجل الازدهار و الترقية المادية و المعنوية. و كل هذا، يوقفنا على حقيقة أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ليست جمعية فنية، أو ذات طابع محدد أو تخصص معيّن، لا بل تنظيم في حجم الأمة مُشَرَّع على تحقيق الاستقلال التاريخي و السياسي لها. و لعلنا لا نجانب الحقيقة اذا استشهدنا بالتقرير الذي رفعه الجنرال جيل قائد قوات الجيش في ناحية قسنطينة القائم بالسلطات المدنية، الذي تضمن حل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : " " فقد سبق لي و أن اطلعت الإدارة العامة لشؤون السياسة على الخطر الذي تمثله جمعية العلماء الجزائريين على مستقبل فرنسا، إذا استمرت في نشاطها. لا يخفى على أحد اليوم، أن نشاط هذه الجمعية، كان يرمي منذ أن تأسست عام ١٩٣١، الى إبعاد فرنسا عن أرض الجزائر لحساب الجامعة الإسلامية و القومية العربية، تحت غطاء نزعتها الوهّابية الجديدة التي تنطوي في عمقها على توجه عنصري، مناهض لفرنسا"١٧. في هذا التقرير الذي رفعه الجنرال جيل يؤكد على حقيقة أن نشاط المصلحين الجزائريين كان على طرف مناقض تماما لسياسة فرنسا، و أن النشاط اللغوي و الديني و التربوي العام رتب لما بعده و حقق نتائج سياسية خطيرة هي ما آلت اليه الأوضاع اليوم ١٩٥٧ من ثورة عارمة، لم تتفطن لها السلطة الا بعد فوات الأوان١٨.

في المسألة اللغوية

تعاملت الإدارة الاستعمارية مع اللغة العربية كتراث بائد مُبْعد من المجال العام و من مؤسسات الدولة سواء كلغة رسمية أو لغة تداول و تنمية بشرية. فقد أخرجتها من المجال الإداري و لم تحفل بها كقناة يمكن أن تخاطب بها المجتمع الأهلي، و اقتصر خطابها على اللغة الفرنسية، و في الغالب كانت تعني الفرنسيين و الأجانب. أما عندما راحت الحركة الإصلاحية، بعد الحرب العالمية الأولى الى تأسيس المنابر الصحفية الحرة باللسان العربي١٩، فكان موقف السلطة الامتعاض و الحرج ثم الوقف و الحظر. فقد ضاقت ذرعا بمسألة التوجه الى الرأي العام الجزائري باللغة العربية٢٠، و اعتبرتها تحديا خطيرا لها لما سيسفر عنه من تشكيل رأي عربي و اعادة اعتبار للغة العربية و إمكانية مزاحمتها في المجال الرسمي و لاحقا السيادي. فالسيادة بدأتها فرنسا في الجزائر عبر استلائها على مقوّمات الجزائريين في صلتهم بالأرض و التاريخ، عندما صادرت الأوقاف و أدرجتها ضمن الدومين العام. و من هنا، فإن أية محاولة لاستعادة أو احياء اللغة العربية و تطويرها هو حتما انتقاص من السيادة الفرنسية و دعم قوي لوجود الأهالي.

أحكمت الإدارة الاستعمارية الدائرة على اللغة العربية، و تركت الأهالي يتداولون مستوى متدني من اللغة قاصرا على الحياة العادية جدّا بالكاد تعبر عن صلتهم بمؤسسات الدولة الفرنسية، ناهيك أن يبدعون بها الأدب و الفكر. فقد أُرْغموا على ترديد لغة دارجة محكية عندما يتعلق الأمر بحياتهم اليومية، و ترديد لغة دينية تراثية لما يتعلق الأمر بشؤون عباداتهم. بينما تعليم العربية في المدارس و المؤسسات التعليمية، فقد اقتصر على مجال ضئيل جدّا، خاصة في المدارس الفرنسية – الإسلامية التي تسعف القضاء و الإدارة بجزائريين يحسنون العربية و الفرنسية لاعتمادهم كوسائط عندما تريد الإدارة مخاطبة الأهالي في المحاكم و المكاتب العربية.

وعلى خلاف ذلك، خاض المصلحون الجزائريون، مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، مشروعهم لترقية اللغة العربية في صلتها بكافة المجالات الموجودة و المحتملة: في التعليم، في الصحف، في الندوات و المحاضرات، في المساجد في أماكن التنشئة الاجتماعية٢١، في المجال التربوي.. الى حد الإبداع بها و تداولها في الحيز السياسي. وبالجملة، فإن برنامج الحركة الإصلاحية، كما حاولت أن تجسده جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ارتقى الى مشروع تغييري يطال الإنسان والمجتمع والوطن، لأن مجاله كان شاملا للجميع في صلتهم بالحياة المعاصرة في كافة أبعادها و مظاهرها. اجتراح مشروع على هذا النحو، أعادته الحركة الإصلاحية من أجل تجاوز الرؤية الاستعمارية التي تحيل اللغة العربية و معه الدين الإسلامي الى التراث الراكد الذي يجتر و يكرر تقاليد بالية و أساطير وأعراف متكلسة رتيبة محكمة في قوالب لا يمكن النفخ فيها لإعادة لها الحياة و الحيوية، فحياة الجزائريين هي مع ماضي راكد ينتمي الى الزمن الميت. و هذا ما كانت ترصده السلطات العمومية من نشاط رجال الإصلاح. ففي تقرير رفعه العقيد تربيه، التابع لمركز البحوث والدراسات لعمالة قسنطينة، جاء في الفقرة المتعلقة بالنشاط الثقافي و اللغوي ما يلي : "مدار نشاط العلماء المصلحين في المجال اللغوي، هو ترقية اللغة العربية والسعي الى اخراجها من الوضع الذي هي عليه، والعمل على غرار بقية البلدان العربية التي حققت نهضتها العربية كما هو معروف. فقد سخّر

العلماء الجزائريون الذين تخرجوا من مدارس تعليم التعليم العربية في المشرق و المغرب: تونس، مصر، سورية، جهودهم لتحقيق النهضة العربية اللغوية و الثقافية على النحو التالي:

- إصلاح اللغة العربية التي صارت مجرد لهجة تخالطها مفردات غريبة و غير واضحة و كلمات أجنبية، مع أن اللغة، في حقيقة الأمر لغة مقدسة و لها اعتبارها. و يسعى العلماء الجزائريون، على شاكلة المصريين الى تنقية اللغة من الشوائب التي علقت بها و إضفاء الحداثة عليها.
- استثمار الثروة الأدبية، الفلسفية و العلمية التي يزخر بها التراث العربي، و إعادة إحيائه بالقدر الذي يأخذ مكانته المعتبرة لدى الجمهور، بعدما عانى الإهمال و اللامبالاة لقرون طويلة."٢٢

تطلعنا هذه الفقرة من تقرير خبير شؤون الأهالي النقيب ترييه، أن ما تنهض به جمعية العلماء في مجال اللغة يندرج ضمن المشروع النهضوي العام مثله مثل ما يجري في المشرق العربي، فالأمر لا يتعلق بموضوع اللغة كلسان بقدر ما تحرص الجمعية على توفير المناخ العام الذي تتكيف معه اللغة العربية ذات التراث العريق و القابلة لأن تستأنف دورة حضارية جديدة بالوقوف على تمكين الوعي الجماهير بقيمة و أهمية اللغة العربية في التواصل و في تحديد خصوصية الإنسان الجزائري الذي يريد أن يعرف لغته و يُعْرف بها.

ابتدر العلماء الجزائريون موضوع اللغة العربية على أنها تندرج في القضايا و المسائل الأهلية، أي تلك التي لا تكتفي بذاتها كلغة صرفة، بل لها دواعي و استحقاقات و مرامي، تطرح على أساس "المسألة اللغوية في الجزائر" ،كما كانت تطرح المسألة الدينية و المسألة الوطنية ... و هكذا، فقد قصد العلماء الى تعليم و تعلّم اللغة العربية و البحث المتواصل لها عن الإطار الاجتماعي و المجال السياسي اللائق من أجل ازدهارها و التعبير في نهاية المطاف و المقصد النهائي عن كافة أبعاد و جوانب الشخصية الجزائرية الآيلة الى التشكل. و نعتقد أن النص الموالي للشيخ الإبراهيمي حول التعليم العربي ما يعبر عن قيمة و أهمية مشروع اللغة العربية في الجزائر كما تطرحها الحركة الإصلاحية في كافة أبعادها الاجتماعية و العلمية و السياسية الى حد اختزال برنامج أمة برمتها : " اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، و من ثم، فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، و لهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقّان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلّمها، فكيف إذا اجتماعا. حق من حيث أنها لغة دين الأمة، بحكم ان الأمة مسلمة، و حق أنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس. ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا، و من هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية، و ما نشهده من مطالبة اجتماعية بحرية تعليمها، و ما نشاهده من قلق و اضطراب في أوساط الأمة لموقف الحكومة المخجل من اللغة العربية، وما نراه من سخط عميق على القرارات و القوانين التي تعرقل تعليمها، وذلك لأنها مفتاح الدين، أو جزء من الدين"٢٣.

في هذا الخطاب الموجه الى السلطات العمومية ، ما يغني عن تكرار الاستشهاد بالاعتبار الذي حظيت به اللغة العربية تعليما و تداولا لدى الحركة الإصلاحية، فقد ارتقت الى مسألة أمة برمتها، و أن وجود الأمة بوجود لغتها على أساس أنها مقَوِّم شخصيتها و حياة المسلمين. فالفقرة الأخيرة من مقال الإبراهيمي توضح بشكل بيّن صلة العربية بالمجتمع الجزائري، كما صلتها بخاصية الأمة و أنها لغة تعاني من وضعية استعمارية يجب أن تطرح كمسألة في المجال السياسي العام، تستنكر موقف الحكومة الفرنسية منها و تستحث التشكيلات٢٤ و الشخصيات الجزائرية على ضرورة دعم الجهد العام لترقية العربية و تداولها كشأن عام في الجزائر. و في ذات المقال توكيد على أن جمعية العلماء هي حصرا الجهة التي تتولى تنظيم التعليم العربي و أنها المسؤولة عن ذلك بصورة شرعية، و أنها تحرص على أن يكون التعليم العربي جزءا من التعليم العام.

لم تكن اللغة العربية في الجزائر زمن الاحتلال لغة جاهزة للتداول، بل يتعين تهيئتها للاستعمال العام و الكتابة و القراءة بها، فضلا على الإبداع و التفكير بها في جل القضايا و المسائل التي تطرح على الجزائريين في صلتهم بتاريخهم العربي الإسلامي، و في علاقتهم بالحكم الفرنسي و مؤسساته في الجزائر. و قد استندت الحركة الإصلاحية على ما كان يجري في المشرق من ارهاصات نهضة عربية و حركة إحياء، و تواصلت معها و صارت امتدادا لها في الجزائر و بلاد المغرب العربي. و من هنا، تكون الحركة الإصلاحية قد استفادت من لحظة الانبعاث الكبير في المشرق العربي و العالم الإسلامي و انطلقت منه من أجل اعادة الاعتبار للغة العربية في المجال الجزائري، و تكون، من ثم، قد وظّفت عنصرا خارجيا لم يكن في حسبان الإدارة الاستعمارية.

الحقيقة التي يكشفها دائما التحليل التاريخي للوضعية الاستعمارية في الجزائر هي أن فرنسا تعاملت مع اللغة العربية ليس على أساس أنها تراث ينتمي الى الماضي فحسب، بل على أنها صفة لتمييز العرب و المسلمين، تؤكد وضعيتهم كأهالي تلازمهم عند التعريف بهم و التعرف عليهم، و بالتالي تميزهم عن الفرنسيين و الأوروبيين الذين تخاطبهم قوانين الدولة الفرنسية بصفتهم مواطنين يتمتعون بالحقوق و الحريات و توابعها. بينما يبقى الجزائريون يرسفون في منظومة من اللوائح و التدابير أطلقت عليها السلطة الاستعمارية "مدونة الأهالي".

الحركة الإصلاحية .. مشروع و مؤسسة

كانت الدعوة الى عقد اجتماع لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دعوة الى الاستثمار في مشروع اصلاح الوضع الجزائري العام، يأخذ أكثر من بعد، و يتوسّل أكثر من وسيلة. مشروع ينطوي على الاستثمار في حقل اللغة العربية و الدين الإسلامي في مدلولهما الاجتماعي، ما لبث أن أفصح عن بعده السياسي من فرط الإصرار على الوجود و توكيد الذات في المجال العام و استدعاء السلطة العمومية من أجل البث و تحقيق مطالب جمعية العلماء. فقد تلمست الجمعية حقل التهذيب و التربية و التعليم و محاربة الآفات الاجتماعية و ما رَانَ على حالة التَّدين لدى الجزائريين طوال عصور التخلف و عهد الاستعمار.

فقد جرى التفكير في إمكانية اعتماد مشروع اصلاحي مع مطلع القرن العشرين، و عرضت المشاريع في الصحف العربية و حتى الفرنسية التابعة للأهالي، متوَسِّمة الأفضل و الأصلح و القابل للتنفيذ في سياق الحالة الاستعمارية و القادر على تحقيق نتائجه المنظورة على المدى البعيد. كانت جهود رجال الإصلاح، قبل تأسيس جمعية العلماء، متناثرة، إذا لم نقل مُبَعثرة، بعضها في الخارج و البعض الآخر في الداخل لا يلتئم و لا تَسْتَقطبه أية حركة تنظيمية. فقد كان النشاط فردي على ما كان يضطلع به الشيخ ابن باديس في مسجد سيدي قمّوش، و الجامع الأخضر، و عندما أصدر جريدة المنتقد ثم الشهاب .. كذلك الأمر جهود شيوخ أخرين، مثل ابي اليقظان، الطيب العقبي، الأمين العمودي ... الى أن حانت لحظة تأسيس جمعية العلماء، شهر ماي ١٩٣١، في اجتماع عام ، فَطَر اليه جمع كبير من علماء الأمة من أجل بعث الحياة الروحية و الثقافية في الجزائريين. فقد كان المشروع وطنياً ليس بمعنى ما و لكن بكل معاني الكلمة في دلالتها الحضارية كما في مدلولها الاقتصادي، أي الاستثمار في حقل التنمية الشاملة للإنسان و المجتمع.

كانت احتفالات فرنسا في الجزائر بمئوية الاحتلال بمثابة لحظة يقظة فورية و امتلاك الوعي بضرورة اصلاح الوضع الجزائري، ليس كما كان يجري بعد الحرب الكبرى، و لكن بضرورة تسخير مؤسسة اجتماعية كفيلة بتحقيق البرامج و الأهداف و الخطط، على نفس الطريقة التي تحقق بها الدول مشاريعها التنموية العامة. و فعلا ، فقد كانت جمعية العلماء، بناء على ما تصوره رجالها و من خلال أجهزتها و مجالسها و نوعية النشاط الإصلاحي الشامل الذي عكفت و ثابرت عليه، مؤسسة وطنية لا تقتصر على حيز و لا على مذهب و لا تخصص محدد.. بل مؤسسة لمشروع جزائري عام لا يقصي أحداً، و يرمي الى استعادة مقومات الذات من السلطة الاستعمارية، و الاستثمار فيها كأفضل سبيل الى ترقية اللغة العربية المعبّرة عن الدين الإسلامي و التراث العربي في كافة حقبه التاريخية.

واليوم، عندما نرصد أسباب نجاح المشروع الإصلاحي الذي دأبت عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بناء على المقاربة التي تستند الى لغة الاقتصاد، خاصة مصطلح الاستثمار في سياق الحديث عن التنمية المستدامة، نجدها تتمثل في الاعتبارات التالية:

- بادرت الحركة الإصلاحية الى الاستثمار في المجال التي كانت تعرفه و تدرك نتائجه و تحسن التصرف فيه و هو اللغة العربية و ما تقتضيه من تعليم و تربية، و أن الوعي بحقيقة اللغة العربية كموضوع و امكانية للاستثمار فيها، حقيقة لازمت منذ البداية المشروع الإصلاحي، و يقول في هذا الصدد الشيخ ابن باديس: " و إذا كنا نصرف أكثر جهدنا للتعلم العربي فذلك لأن العربية هي لغة الدين الذي هو أساس حياتنا و منبع سعادتنا، و لأنها هي التي نحسن تعليمها، و لأنها – و هذا من الوجاهة و العدالة بمكان- هي اللغة المهملة بين أبنائها، المحرومة من ميزانية بلدها، المطاردة في عقر دارها، المغلقة مدارسها، المحارب القائمون على نشرها من أبنائها، اللهم الا قليلا نادرا- على خوف- يحتج به عند مقتضى الحال، و الا المدارس الرسمية الثلاث التي تقبل الا عددا محدودا لتخريج من يملأ الوظائف الرسمية و يناسب روحها"٢٥. ما توضحه هذه الفقرة، أن الحركة الإصلاحية، عبر جمعية العلماء، سعت الى الاستثمار في المجال الذي قصَّرت

فيه، لا بل أهملته السلطة الاستعمارية، أي اللغة العربية في صلتها بالدين و المجتمع.

- انطوت جمعية العماء على تنظيم صلب، وفّر منذ البداية الأجهزة و المجالس و اللجان التي تشتغل بشكل دوري مرتب و منظم منذ عام ١٩٣١ الى غاية ١٩٥٦ ، تاريخ حظر الجمعية من قبل السلطات الفرنسية في سياق نشوب الحرب التحريرية.
- رافق ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تيار تحرري على مستوى العالم و اصلاحي على مستوى العالم العربي و الإسلامي، الكل يتوجه نحو مزيد من الحريات و العدالة و ترقية الإنسان في كافة أبعاده . فقد كانت ثلاثينيات القرن العشرين لحظة تاريخية مهمة في حياة الفرنسيين كما الجزائريين، أشّرت على ضرورة الحسم في المسائل بصورة جدية، و أن زمن التسويفات و التلكؤ عن أتخاذ القرارات الإصلاحية قد ولّى دونما عودة.
- راهنت الحركة الإصلاحية على مجال التربية و التعليم، باعتبارها تنتمي الى المجتمع المدني، كما أنها توسلت الاستثمار في اللغة العربية، كأفضل وسيلة للتواصل و التعليم و التبليغ و أنها أحسن قاسم مشترك بين الجزائريين يوفر إمكانية اضفاء الحقيقة الوطنية على مشروعها الإصلاحي، أي أنه يهم الجميع دونما اعتبار لمنطقة و أو لمذهب أو طريقة أو ثقافة أو فئة. فقد تشكل المجلس الإداري للجمعية من نواة صلبة، أفرادها من رجال الإصلاح عقيدة و منهجا، و من كافة مناطق القطر الجزائري.
- تَوَلّي الشيخ عبد الحميد ابن باديس رئاسة الجمعية منحها، منذ البداية، الروح الحيوية بحيث تلازمت شخصيته مع الشخصية التي يريد أن يعيد لها مقوماتها، كما أنه تماهى من المشروع الإصلاحي بالمعنى الذي يشير الى النهضة الشاملة للوطن الجزائري. فقد كان ابن باديس الرجل المثقف المستغنى عن السلطة، لا تأسره و لا تستحوذ عليه، كما أنه الرجل العام الذي يقصده الجميع سلطة و مجتمع، عرباً و فرنسيين، يتوجهون اليه كمرجع أمين و صادق و فاعل.

الهوامش

١- التعليم العربي، ابن باديس، الشهاب، ع/ ٤٢، ٢٩ جويلت ١٩٢٦.

٢- التعليم العربي، ابن باديس، الشهاب، ع/٤٣، ٢ غشت ١٩٢٦.

٣- جاء في قرار توقيف جريدة الصراط لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مايلي :" يمنع تداول، جريدة الصراط الناطقة بالعربية و الصادرة في قسنطينة، كما يمنع بيعها و توزيعها في الجزائر. و يمتد هذا المنع الى كل جريدة تصدر بنفس اللغة و التوجه ، و تتخذ من الجزائر مقر إدارتها و هيئة تحريرها، حتى وإن تغيّر صاحب الامتياز فيها، و خرجت من مطبعة أخرى" ، أنظر النص الفرنسي كما أصدره في باريس السيد كامي شوطان Camille Chautemps وزير الداخليةالفرنسية، la Défense،n°1، janv. 1934

٤-حول نشاط العلماء في مجال التعليم في بعده القومي (العربي) يمكن العودة الى كتاب رابح تركي، التعليم القومي و الشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ١٩٧٥. و الكتاب في الأصل رسالة الباحث في الدكتوراه، أعدها من واقع متابعة نضال الحركة الإصلاحية على مستوى كتابة تراث جمعية العلماء في مجال التعليم و صلته بتكوين الشخصية الجزائرية.

٥ – Gouvernement Général de l'Algérie، Statut et droits politiques des indigènes، p. ٥٠ ،٤٩. réf. Bibliothèque AOM، B/٤٣٠٦.

٦ – Mohamed Benrahal، discours pour l'enseignement de la langue arabe، Revue Indigène، n° ١٥٠/١٤٩، av. /juin، ١٩٢١، p.١١٢

٧ – Ibid.، p.١١٣

٨ – Ibid.، p.١٠٧.

٩ – Préfecture d'Alger، affaires indigènes et police générale، Alger le 9 / 10 / 1937، réf. Algérie، Département d'Alger، CAOM 4 i /13، p.1، 2

١٠- مطالب مكتب جمعية العلماء إلى المؤتمر الإسلامي، البصائر، ١٩ جوان ١٩٣٦

١١- مطالب مكتب جمعية العلماء إلى المؤتمر الإسلامي، البصائر، ١٩ جوان ١٩٣٦. ما يجدر ذكره في هذا المقام، أن هذه المطالب التي تقدم بها مكتب الجمعية إلى المؤتمر الإسلامي، نشرتها صحيفة البصائر، لسان حال جمعية العلماء، كما نشرتها مجلة الشهاب لصاحبها الشيخ ابن باديس،

لكن الفرق، أن نسخة ابن باديس جاءت مصدّرة بفقرات تنوّه و تثني على الأمة الجزائرية و ترفع من اعتبارها و تعلي من دورها الرّائع في تحرير الأراضي الفرنسية من أعدائها، و أن الشعب الجزائري دائما كان في الموعد للدفاع عن حياض فرنسا و مستعمراتها، ومن هنا جاءت المطالب تحت عنوان، "حقوق الأمة الجزائرية التي تطلبها من الأمة الفرنساوية"، ما يؤكد درجة وعي الذي صار عليه المصلحون الجزائريون الذي يطالب بحقوق الأمة الجزائرية من الأمة الفرنسية.

١٢- ابن باديس، تعليم اللغتين ضروري لنا، الشهاب، ع/ ٤٧، ١٩٢٦/٨/١٦.

١٣- لا يستبعد ابن باديس اللغة الفرنسية في عملية الإصلاح الشامل، كمثقف براغماتي يرى في اللغة الفرنسية نموذج اللغة الراقية و العملية و المدنية، و يقول في هذا الصدد:: " نحب لأبنائنا أن يتعلموا اللغة الفرنسية، فهي لغة علمية و عالمية و لغة الأمة التي تربطنا بها روابط اجتماعية و بالحكومة التي تتصل شؤوننا و مصالحنا بها. نحب لأبنائنا هذا، من دون أن نرضى بأن يمس شيء و لو قليل من أمر عقيدتهم و صفتهم الدينية، لأن العقيدة و الصفة الدينية عندنا هي فوق كل شيء، و قبل كل شيء، و أعز من كل عزيز، و أعظم من كل عظيم (...) و إذا كانت (المدارس) علمانية قدمنا لها أنباءنا و نحن مطمئنون على عقيدتهم، و إن كانت دينية تركناها لأبناء دينها التي تنتمي اليه (...). إن مدارس الحكومة العلمانية المحضة موجودة، فليؤموها المسلمون بأبنائهم دون غيرها من كل مدرسة لها صيغة دينية غير اسلامية، و ذلك يكونون قد أوصوا أبنائهم الى اللغة الفرنسوية و ما يعلم بها دون أن يصيبوهم بشيء من دينهم و عقيدتهم". أنظر، مدارس الحكومة العلمانية و المدارس النصرانية : أيتهما يسوّغ للمسلمين أن يقصدوها بأبنائهم"، الصراط، ع. ٥، ٢٥ أكتوبر ١٩٣٣.

١٤- المرجع نفسه.

١٥- محمد البشير الإبراهيمي، العربية، فضلها على العلم، و أثرها في الأمم غير العربية، الشهاب، فيفري ١٩٣٩. و الحقيقة أن الاستشهاد بما كتبه الشيخ الإبراهيمي، يكشف من جملة ما يكشف عن أن الرجل صاحب قلم رصيد، تمكن من اللغة العربية الى حد أن طاوعته ليدبّج بها المقالات و الخطابات، فضلا على البحوث و الدراسات. و حالة الإبراهيمي مع اللغة العربية في الجزائر هي حالة كاشفة لعروبة الجزائر، خاصة و أنه أقام لسنوات طويلة في بلاد المشرق العربي الذي قلمّا واتت فرصة اطلاع أهلها على العربية في الجزائر . فالرجل مثال المعَبّر عن وطن يبحث عن أصالته و مرآة كاشفة عن وضع استعماري يجب التخلص منه سواء في المشهد الجزائري أو ما يمكن أن يطلع عليه أهل المشرق العربي. و عليه، فالإبراهيمي هو ظاهرة للعربية في الجزائر و مصلح كبير لها أيضا.

١٦- المرجع نفسه. و في ذات المقام الذي يشرح فيها عالمية اللغة العربية، يضيف الإبراهيمي : " أيها الإخوان، ان العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمة، و انما خدمت المدنية الإنسانية العامة مدنية الخير العام، و لم تخدم علماً خاصا بأمة و إنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة".

١٧ – Le général Gilles، rapport n° 502/CAB/AP. 12 juil. 1957، concernant la dissolution de l'association des oulémas réformistes. Préfecture de Constantine، SNLA.

١٨- حول تنبيه السلطات الفرنسية عن نشاط العلماء المناهض و المناقض لمصير فرنسا في الجزائر، يمكن العودة الى كتاب حسان (رابح زناتي) نهاية الجزائر الفرنسية comment périra l'Algérie française ، الذي أصدره عام ١٩٣٨، ثم أعادت السلطات العمومية اصداره و توزيعه عام ١٩٥٧ على أساس تقرير مصلحي يعني الجهات الأمنية المدنية و العسكرية من أجل صد العمل المؤذي لحزب العلماء .

١٩ حول أهمية و صلة المشرق العربي و تأثيره على الصحافة العربية في الجزائر، يمكن العودة الى الدراسة الرّائدة شافاران (متصرف إداري رئيسي)، « Influence de l'Orient sur la presse de langue arabe en Algérie : tendances et programme des oulémas »، exposé présenté par M. Chavarin، administrateur principal de la commune mixte de fort-national، au cours de cycle d'études sur l'évolution، des pays musulmans، mai 1936. réf. CAOM. 4i/12.

٢٠- مسألة تخوّف الإدارة الاستعمارية من توجه رجال الإصلاح الى الرأي العام باللغة العربية مثلت هاجسا نغّص عليها الوضع ، أضطرها في غالب الأحيان الى غلق و مصادرة الصحف العربية، رغم أن قادة الإصلاح يؤكدون دائما أن تأسيس منابر و قنوات التواصل مع الجزائريين انما يندرج في حق الإعلام و حرية التعبير المصونة بقوانين الجمهورية. و في هذا المقام، يمكن أن نورد ما جاء في مقال ابن باديس في اعقاب قيام السلطات العامة بمصادرة و توقيف جريدة " المنتقد" : " نبدي لحضرتكم أسفنا على توقيف جريدتنا "المنتقد" التي كانت في نظرنا الا خادمة

للمصلحة العامة على المبادئ الفرنساوية الحرة، و التي ما أسسناها الا بنوايا حسنة و مقاصد سليمة لخدمة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديموقراطية". عبد الحميد بن باديس، " رسالة الى جناب الوالي العام، الشهاب، ع. ، ١٩ نوفمبر ١٩٢٥. في هذا الخطاب الموجه الى السيد الوالي العام ما يؤكد حرص ابن باديس و رجال الإصلاح على احترام المجال العام و ان تصرفاتهم و نشاطهم قائم على ما توحي به مبادئ الجمهورية و تنص عليه قوانين الدولة و مؤسساتها العامة. في موضوع حصار السلطة الاستعمارية للغة العربية، يمكن العودة الى الطيب العقبي، " ثلاث قرارات أصدرها م. ميشال في اسبوع واحد، البصائر، ٧ أوت ١٩٣٦.

٢١- حول دور وسائل التنشئة الاجتماعية، و قدرة الحركة الإصلاحية إلى ارتيادها و التأثير على الأهالي، يمكن العودة الى بحث عفاف زكور:

Afaf Zekkour، les lieux de sociabilité islahiste et leurs usages : la ville d'Alger (1931 - 1940) revue Mouvement social، n° 236، 20113/، p.2334-

٢٢ – Terrier Cpt. Les Oulémas réformistes algériens، Département de Constantine، centre d'étude et d'information، ١٩٣٧.

٢٣- محمد البشير الإبراهيمي، أثار الإبراهيمي، ج.٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧، ص.٢٤.

٢٤- من أهم النصوص التي تؤكد تواصل النخبة الجزائرية مع المشروع "الوطني" لجمعية العلماء المسلمين نص المشروع الذي تقدم به حزب الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري الي الجمعية الجزائرية، حول تنظيم تعليم اللغة العربية في الجزائر، حيث ينوه بقيمة اللغة العربية كأداة تواصل و قناة للفكر العربي والإسلامي و تاريخها في الجزائر، كما يفرد حالتها زمن الاحتلال و ما عانته من تضييق و حصار من قبل الإدارة الاستعمارية.. الى حين ظهور الحركة الإصلاحية التي آلت على نفسها مهمة تعليم العربية و فتح المدارس لها و السعي لدى السلطة العمومية من أجل ترقيتها و ادراجها في الحيز العمومي و طرحها كمسألة تتعلق بالأمة و الدولة. أنظر النص الكامل الوارد تحت عنوان

Texte intégral du projet déposé par les élus de UDMA، à l'assemblée algérienne :، cf.، La République algérienne، l'organisation de l'enseignement de la langue arabe en Algérie،

٢٥- عبد الحميد بن باديس، في سبيل التعلم و التقدم، البصائر، ٢١ أكتوبر ١٩٣٨.

المراجع

- مجلة الشهاب (١٩٢٦-١٩٣٩)
- جريدة البصائر (١٩٣٦- ١٩٣٩)
- جريدة الصراط(١٩٣٣)
- الإبراهيمي محمد البشير، أثار الإبراهيمي، ج.٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧،
- تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ١٩٧٥.

- Journal la Défense 1934- 1939
- Afaf Zekkour، les lieux de sociabilité islahiste et leurs usages : la ville d'Alger (1931 - 1940) revue Mouvement social، n° 236، 20113/، p.2334-
- Terrier Cpt. Les Oulémas réformistes algériens، Département de Constantine، centre d'étude et d'information، 1937.
- Benrahal Mohamed، discours pour l'enseignement de la langue arabe، Revue Indigène، n° 149/ 150، av. /juin، 1921
- Chavarin، « Influence de l'Orient sur la presse de langue arabe en Algérie : tendances et programme des oulémas »، exposé présenté par M، administrateur principal de la commune mixte de fort-national، au cours de cycle d'études sur l'évolution، des pays musulmans، mai 1936، réf. CAOM، 4i/12.
- Gilles (Le général)، rapport n° 502/CAB/AP، 12 juil. 1957، concernant la dissolution de l'association des oulémas réformistes. Préfecture de Constantine، SNLA
- Le Gouvernement Général de l'Algérie، Statut et droits politiques des indigènes.
- La République algérienne، l'organisation de l'enseignement de la langue arabe en Algérie
- Préfecture d'Alger، affaires indigènes et police générale، Alger le 9 /10 /1937، réf. Algérie، Département d'Alger،
- Terrier Cpt. Les Oulémas réformistes algériens، Département de Constantine، centre d'étude et d'information، 1937.